الأهرام

٢٦ / ١٢ / ١٩٦٩

الأداء وأسلوب التلحين فى أحدث أغانى « أم كلثوم »

السنباطى

يجمع فى أغنيته بين ايقاعات وأنغام المدائح وتأثيرات الموسيقى الرومانتيكية الأوروبية

رياض السنباطى

سليمان جميل

ان الاداء عند أم كلثوم يمثل اتجاها فى الغناء له مميزاته الخاصة ، وكذلك فان اسلوب التلحين لام كلثوم اكتسب صفات خاصة لاتخلو من التأثر بالموسيقى الاوربية ، وحتى تتضح أبعاد الاداء عند ام كلثوم واسلوب التلحين فى أحدث اغانيها فاننا نتناول تحليل هذه الابعاد فى اطار تقاليدنا الموسيقية ، وايضا فى ضوء احتكاك هذه التقاليد بالموسيقى الاوربية .

■ اداء ام كلثوم ■

نشأت ام كلثوم فى الريف ، واستمعت الى انغام « السلامية » و « الارغول » قبل ان تستمع الى الاوركسترا السيمفونى ، وتربى الاوبرا الايطالية فى دار اوبرا القاهرة التى انشئت سنة ١٨٦٩ ، كما ان ام كلثوم نشأت تقرأ القرآن وتنشد الحان المدائح النبوية . قبل ان تستمع وتجيد الاستماع الى الموشحات والقصائد .. الخ ومع ذلك فان تراثنا الموسيقى الفنى « المنحضر » لم يكن قريبا على ام كلثوم ، لانه يحمل أولا عنصر اللغة العربية ثانيا فان هذا التراث قد احتفظ بدرجات متفاوتة بموسيقى الريف المصرى خصوصا فى مواسم الاناشيد وكانت مدرسة المشايخ الموسيقية التى انتشرت فى الاقاليم تضم الشيخ الذى يقرأ القرآن بمبادرات انغام سليمة غير موزونة ايقاعيا مع التزام قواعد علم قراءات القرآن وتجويده . وفى نفس الوقت فان مدرسة المشايخ فى القاهرة لعبت دورا اساسيا فى حفظ تراثنا الموسيقى المنحضر ... وفى هذه المدرسة تخرج كبار المغنين والمغنيات والملحنين والعازفين — بطريق مباشر أو غير مباشر — ولمست أساتذتهم ابتداء من الشيخ سلامة حجازى حتى سيدة الغناء العربى أم كلثوم .

■ أسلوب رياض السنباطى ■

بدأ رياض السنباطى التلحين فى الثلاثينات معتمدا على خبرته العملية فى حفظ أعمال من تراثنا الموسيقى المنحضر ، وعلى خبرته العملية فى العزف على العود ، وعلى التحصيل العلمى السائد فى عصر نشأته ، وكان موقف رياض السنباطى من الموسيقى الاوربية . هو موقف المتأثر بها عن طريق — الاستماع — ومن هذا الموقف ومن المكتسب من التراث الموسيقى حقق رياض السنباطى أسلوبه العاطفى فى تلحين الاغنية القصيرة ، أو الطويلة لام كلثوم وغيرها من المغنيات والمغنين . وأصبح أهم ما يميز هذا الاسلوب هو الجمع بين أشكال ايقاعية ذات طابع دينى تكسوها ابعاد انغام مخلية ، وبين ابعاد اللحن العاطفى الذى تبلورت خصائصه فى الحركة الموسيقية الرومانتيكية التى بدأت فى أوربا مع بداية القرن التاسع عشر ، واذا كان تأثر رياض السنباطى بالالحان الرومانتيكية الاوربية قد اعتمد على الاذن — الاستماع — فان هذا التأثر يبدو فى أعماله الغنائية المتعددة تابعا من ذاته بطريقة غير متعمدة ، وهكذا نجد أن موقف رياض السنباطى من الموسيقى الاوربية هو موقف الفنان الأصيل ، وهو نفس موقف سيد درويش مع اختلاف الرؤية الفنية ، ودرجة الاستعداد الموسيقى ، ومدى التحصيل من التراث الموسيقى المنحضر والشعبى بينهما . ومن هذه النقطة نستطيع توضيح الفرق بين موقف رياض السنباطى الذى تأثر بالموسيقى الاوربية عن طريق الاستماع ، ثم ظهر هذا التأثر تابعا من ذاته ، وبين موقف محمد عبد الوهاب الذى جمع فى أسلوبه بين التأثر الشفوى بالموسيقى الاوربية

وبين الاقتباس الحرفى من حساسية الالحان الرومانتيكية الاوربية .

■ أقسى الموسيقى لأغنية « أنا قبل الليل » ■

هذا الشكل مرتبط بل وينبع من الشكل الشعرى الذى حدده الشاعر احمد رامى ، وهذا الشكل يتكون من ٤ اجزاء تتفاوت فى عدد ابياتها وتربطها وحدة الحالة العاطفية موضوع البناء الشعرى لاغنية « انا قبل الليل » .

ولكى نستطيع ان نتبين الاطار الموسيقى الخارجى لهذا الشكل الشعرى لابد ان نستمع الى اغنية « انا قبل الليل » فى تسلسلها الزمنى منذ بدايتها حتى نهايتها خالية من تنويعات الاداء التى تدعمها « ام كلثوم » على اساس بعض الاجزاء اللحنية . وعلى هذا الاساس يمكن تحديد الاطار الموسيقى الخارجى لاغنية انا قبل الليل » بأنه نوع من اشكال المتتالية التى تجمع بين فقرات غنائية وفقرات أخرى تؤديها الآلات الموسيقية فقط . واذا انتقلنا الى الحديث عن محتويات الاطار الخارجى لاغنية « انا قبل الليل » فان أهم هذه المحتويات بعد اداء « ام كلثوم » هو عنصر الالحان ، ومسار هذه الالحان يعتمد على تتابع النغمات المفردة بحيث يتكون اللحن من نغمة تأتى بعدها نغمة اخرى صعودا او هبوطا من النغمة الاولى وهكذا ، ومسار اللحن بهذه الطريقة يختلف عن مساره بطريقة تركيب مجموعة من الانغام تعزف من مختلف الآلات فى وقت واحد ثم تنتقل الى مجموعة اخرى من الانغام وهكذا ، ومعنى ذلك ان الحان اغنية انا قبل الليل ، خالية من عنصر تركيب الانغام [الهارمونى] . والعنصر الثانى المهم فى اغنية انا قبل الليل ، هو اشكالها الايقاعية التى تكسوها الانغام وتتنوع من جزء الى آخر خلال فقرات الاغنية ومن بين هذه الاشكال الايقاعية ما هو مأخوذ من ايقاعات الحان المدائح النبوية ويتحدد ذلك فى اداء «ام كلثوم» لحن « انا طير رنان فى دنيا الاحلام .. اتابع بسلامى صفو الايام » ... والعنصر الثالث فى اغنية « انا قبل الليل » هو الآلات الموسيقية التى استخدمها الملحن فى اداء الحانه ، والجديد هنا هو استخدام رياض السنباطى آلة الارغن الكهربائية وهى ذات صوت نقى ، ولقد نجح رياض السنباطى فى استخدام هذه الآلة الموسيقية الجديدة فى عمله وذلك كأداة للربط العضوى بين فقرات الغناء ، كما أنه استغل موهبة ودراسة عازف الارغن الكهربائى طالب الكونسرفتوار الشاب « جمال سلامة » فى ابتكار بعض تركيبات النغم والالحان الملائمة للالحان الاساسية التى تتكون منها اغنية « انا قبل الليل » .

□ ان رياض السنباطى عندما نجح فى استخدام آلة الارغن الكهربائية كأداة ربط فنى فى أغنيته الجديدة لام كلثوم ، عوض ماقاته استخدامه قبلا فى اغنيته « اراك عصى الدمع » . حيث استخدم فيها آلة البيانو فى مقدمة الاغنية فقط وهكذا ظهرت آلة البيانو كعنصر شاذ فى اطار الاغنية ككل .

■ تقاليدنا الموسيقية ■

ان هذه التقاليد منها ما ينتمى الى تراثنا الموسيقى « الفنى او المنحضر » ومنها ماينتمى الى تراثنا الموسيقى « الشعبى » والموسيقى المنحضرة فى تراثنا هى ثمرة للدراسات الموسيقية النظرية والتطبيقية التى اشترك فيها علماء عرب ، وعلماء من مختلف البلاد التى انتشر فيها الاسلام ... أما الموسيقى الشعبية فى تراثنا فأساسها التلقائية والفطرة البعيدة عن الدراسات النظرية والتطبيقية .

□ وأقرب مدرسة موسيقية منحضرة شكلت الخصائص العامة المشتركة لتقاليدنا الموسيقية الحية حتى الآن فى المحيط العربى فى افريقيا وآسيا ، هى مدرسة

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

٦٩/١٢/٢٦

الموسيقية الحية حتى الان فى المحيط العربى فى افريقيا وآسيا ، هى مدرسة بغداد الموسيقية التى تبلورت فى عصر الدولة العباسية (٧٥٠ م – ١٢٥٨ م)، ومدرسة الاندلس الموسيقية التى تبلورت فى عصر الاندلس فى اسبانيا (٧٥٦ م– ١٠٢١ م) وفى هذه المدرسة الاخيرة ابتكر الموسيقيون فى مختلف البلاد الاسلامية – وعلى رأسهم « أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب » – اشكالا موسيقية رائعة من أهمها « الموشحات»، و « الدوبيت » ، وهى نوع من اشكال المتتالية تجمع بين فقرات من الغناء ، وفقرات من موسيقى الآلات .

□ ان تراثنا الموسيقى المتحضر الذى ازدهر فى ظل الحضارة الاسلامية وارتبطت فيه النغمة بالكلمة العربية – كما ظهرت فيه المقطوعات الموسيقية البحتة الخالية من عنصر الغناء البشرى – هو ذلك الاساس الموسيقى المتحضر المشترك فى مصر والعراق وتيونس وليبيا والاردن والجزائر والمغرب وتونس وليبيا .. الخ ، وكان هذا التراث هو الاساس الذى بدأت تركيا الاهتمام به منذ حوالى القرن الخامس عشر ، ولقد انتقل هذا التراث الموسيقى المتحضر من المغرب العربى مثلا الى موريتانيا وحيث توجد قبائل البيضان فى غرب افريقيا شمالا وايضا فى اليمن ، وكذلك فلقد انتقل هذا التراث الموسيقى الى شرق افريقيا ... المهم ان اثر هذا التراث شديد الوضوح فى الاعمال الغنائية الجماعية التى قدمتها فرقة « موريتانيا » فى مهرجان الثقافة الافريقية الذى انعقد فى الصيف الماضى فى الجزائر ، كذلك فان هذا الاثر واضح فى الاعمال الغنائية التى قدمتها فرقة أوغندا منذ أعوام قليلة فى القاهرة . ومن الواضح فى ضوء الملاحظة الواقعية واستنادا الى التاريخ أن تراثنا الموسيقى المتحضر الذى بدأ فى نصور الشرق العربى وغيرهم من شعوب القوامم الاسلامية قد انتشر على نطاق واسع فى البلاد التى انتشر فيها الاسلام فى افريقيا وآسيا واوربا ووصل الى شعوب هذه البلاد واختلط بتراثها الشعبى او تراثها المتحضر كما حدث فى اوربا فى العصر الوسيطى المعروف بعصر الباروك وابرز اعلامه الموسيقار الالمانى « باخ » ، ولا شك ان حقل البحث العلمى فى هذا المجال ما زال بكرا ، ويحتاج الى جهود الباحثين الموسيقيين المتخصصين بشكل منظم حتى نوضح أثر الحضارة الموسيقية الاسلامية فى افريقيا وآسيا واوربا فى العصر الوسيط .

■ المؤثرات الموسيقية الاوربية ■

لقد بدأ يزداد اختلاط الموسيقى الاوربية بتقاليدنا الموسيقية فى مصر فى النصف الثانى من القرن الماضى ، ولم يكن هذا الاختلاط منذ بدايته قائما على أساس علمى من جانبنا وذلك لانعزالنا عن التعليم الموسيقى الذى تطور فى أوربا خلال الاربعة قرون الاخيرة ، وهكذا انعكست المؤثرات الموسيقية الاوربية على أعمال الشيخ سلامة حجازى بطريقة ما ، فقد كان تأثر هذا الشيخ المغنى والملحن الرائد بالموسيقى الاوربية يعتمد على الاذن ولا يعتمد على دراسة قواعد اشكال الموسيقى الاوربية ، والسبب أن مدرسة المشايخ الموسيقية التى ينتمى اليها الشيخ سلامة حجازى كان يتم التعليم فيها على أساس التلقين الشفوى ، ولم تعرف هذه المدرسة قواعد قراءة وتدوين الموسيقى على الطريقة العالمية وهى تلك القواعد التى تطورت وتبلورت فى أوربا خلال الاربعة قرون الاخيرة ... ولقد ظل الملحن المصرى ابتداء من « سلامة حجازى » حتى « سيد درويش » يتأثر بالموسيقى الاوربية عن طريق الاذن ، وليس عن طريق دراسة قواعد هذه الموسيقى ، وتحليل اشكالها المختلفة فى التأليف الغنائى والتأليف للآلات الموسيقية . – ولذلك فانه مهما بلغت درجة الاستعداد الموسيقى لدى الملحن المصرى فى الاصالة ، فان هذا الملحن الذى درس أعمالا من تراثنا الموسيقى المتحضر عن طريق التلقين الشفوى وافتقد على الخبرة العملية بدون التدوين لم يستطع التفاعل طليقا وغنيا مع الموسيقى الاوربية، وهكذا ظلت مدرسة تراثنا الموسيقى المتحضر خارج دائرة التفاعل الخلاق مع تطور العلوم الموسيقية الاوربية، وبالتالى عجزت هذه المدرسة عن استنبات اشكال موسيقية جديدة انسانية عالية من قيم تراثها المتحضر ... ولقد كان التفاعل الكامل الخلاق مع اساتذة مدرسة تراثنا الموسيقى المتحضر – فى عشرينات القرن الحالى – كان على قلم بروز خاصة يتمتع بها الحانه ولكنها رموز تنبىء بظلمة عن الرموز العالمية المستخدمة فى التدوين الموسيقى الاوربى ، وهذا ما عزل الغناء : كالمثل الحكمى « الملحن والباحث عن سلامة المدارس الموسيقية الاوربية علميا وفنيا ...

■■ والحقيقة فان نهضتنا الموسيقية قد اخذت تسير فى العشر سنوات الاخيرة فى طريقها السليم بعد ان اتضح امام المسئولين عن التعليم الموسيقى والفنانين المتجهين لانواع الموسيقى والغناء المختلفة، ان ركائز النهضة الموسيقية فى بلادنا تتحدد فى ركيزتين أساسيتين هما :

اولا : دراسة تراث الموسيقى العربية بنوعيه « الغنى » و « الشعبى » .

ثانيا : دراسة قواعد الكتابة والقراءة والصياغة الموسيقية الاوربية التى تطورت خلال القرون الاربعة الاخيرة .

وان كانت ام كلثوم وكل من لحنوا لها قد بدأوا الخطوة الاولى والصعبة فى هذا الطريق فان الخطوة الثانية والاصعب على عاتق ابناء الجيل الموسيقى الجديد □

ام كلثوم ثروة اصيلة فى الاداء

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية